دين الله واحد

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

إن جميع الرسالات الإلهية التي أرسل الله بها الرسل لهداية الناس إنما يقصد بها أمران :

أحدهما : تقرير الواقع في شأن الألوهية وما يصدر عنها من إرسال الرسل ، وتنزيل الكتب ، والبعث والجزاء ...

والآخر : هو التدرج بالناس في مدارج الكمال ، ومدهم بالأحكام التشريعية التي تصلح بها أحوالهم ، وتستقر بها سعادتهم ومن الطبيعي أن تتفق الرسالات كلها في الأمر الأول لأنه رجوع بالبشر إلى شيء مقرر ثابت لا يختلف باختلاف العصور والأحوال ، وأن ينحصر الخلاف في دائرة المناهج والشرع التفصيلية التي تتغير بتغير الزمان ، ويتدرج الإنسان في مراتبها بحسب أطواره وبيئاته ودرجة رقيه في العقل والتفكير . ولذلك كان « الدين » واحداً على لسان كل رسول بعث ، وكانت « الشرائع » مختلفة في تفاصيل الأحكام والتعبدات « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

وقضية اتحاد الدين على اختلاف الرسل قضية يقررها القرآن الكريم في كثير من المواضع ، ويكررها على أساليب مختلفة ، لتستقر في النفوس ، وتؤمن بها القلوب ، ويعلم الناس أنهم جميعاً على كلمة سواء ، وأنه لا مبرر للتفرق والتنازع والعصبيات .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

وهذه الآية تفيد أن أصول الدين ثلاثة :

١ — الإيمان بالله على وجهه الصحيح الذي بين في آيات أخرى ، بأن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعمل إلا لوجهه ...

٢ — الإيمان باليوم الآخر ، بأن يعتقد أن الله سيبعث الناس من الأجداث ليحاسبهم على ما قدموا من خير أو شر فيكافيء المحسن على إحسانه ، ويجزي المسيء بإساءته .

٣ — العمل الصالح الذي من شأنه أن يسعد المجتمع البشري ويزيل الشرور والفساد ، وينشر الطمأنينة والأمن ، ويمكن كل إنسان من أداء واجبه وأخذ حقه على وجه سليم لا يفضي إلى نزاع ، ولا يؤدي إلى ظلم .

هذه هي أصول الدين التي يتفرع منها كل ما سواها ، وقد تضافر رسل الله أجمعون على تبليغها ، وبذل كل واحد منهم في سبيل تقريرها والتمكين لها ما ملكه الله من جهد وآتاه من عمر ، وتلقوها عهداً من الله يبشر فيه سابقهم بلاحقهم . ويؤيد لاحقهم سابقهم ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

والقرآن الكريم يسوق لنا قصص الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم فنجد الرسالة التي جاءوا بها تكاد تتفق حتى في الألفاظ التي تحدث بها كل رسول :

ففي سورة « هود » يقص الله علينا أن نوحا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » .

وأن صالحا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

وأن شعيبا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » .

ويقص القرآن الكريم علينا مثل ذلك أيضاً في سورة الشعراء : يذكر نوحا وقومه فيقول : « كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر هودا وقومه فيقول : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر بهذا النص نفسه صالحا وقومه ، ولوطاً وقومه ، وشعيباً وقومه ، فيبين لنا أنه لا اختلاف حتى فى التعبير ، ولذلك يقول الله عز وجل : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وكما نجد هذه الوحدة فيما دعا إليه الرسل قد تناسقت حتى ظهرت فى الألفاظ والعبارات التى عبر بها عنها ، نجد أقوام هؤلاء الرسل جميعاً يكادون يتفقون فى الرد على هؤلاء الرسل ومعارضتهم فى دعواهم ، وفى مقدمتهم السادة والكبراء :

فالملأ من قوم نوح يقولون : « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

ويصل الأمر بهم فى التحدى إلى أن يقولوا : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين »

وعاد يقولون لنبيهم « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » .

وقوم صالح يقولون له متهكمين : « يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » .

وقوم شعيب يقولون ساخرين : « يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد » .

ويصل بهم الأمر إلى أن يقولوا له : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

وهكذا تشابهت قلوبهم ، وتوافقوا على رفض الدعوة بأسلوب واحد ومعنى واحد، ولذلك يقول الله عز وجل : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » ويقول : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

وما لنا نذهب هذا المذهب والقرآن الكريم يعلن فى كثير من الآيات وحدة الدين على نحو قاطع إذ يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ويقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » .

بل يذهب إلى أبعد من ذلك فى التحديد والتوحيد فيعلن أن دين الله منذ كان هو « الإسلام » ، ولن يقبل الله سواه ، وأن الذين اختلفوا فيه من أهل الكتاب إنما كان اختلافهم بغياً وتجاوزا وكفرا « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والإســـلام فى الأصل معناه الانقياد والخضوع ، وقد استعمل بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، فكل من « أسلم وجهه لله وهو محسن » أى استسلم لأمر الله ورضى به وعمل صالحاً ، فهو فى نظر القرآن مسلم ، ولذلك جعله الله مقابلا للشرك فى مثل قوله : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء فى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » وجعله مقابلا للكفر فى مثل قوله « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » كما وازن بين المسلمين والمجرمين فى قوله : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ووصف الدين القويم بقوله « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » والقول القويم بقوله « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » وتحدث عن عباده المؤمنين الذين سيدخلهم الجنة يوم القيامة من سائر الأمم بقوله « يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » .

وقد جاء فى القرآن الكريم وصف كثير من الأنبياء ومن أرسلوا إليهم « بالإسلام » : فنوح يقول : «وأمرت أن أكون من المسلمين » وإبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » ، ويقول الله لإبراهيم : أسلم فيقول : « أسلمت لرب العالمين » ويصفه الله بأنه « كان حنيفاً مسلما » ، ويوسف يدعو ربه فيقول « أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ، وسليمان يكتب إلى أهل سبأ « أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين » ويقول لقومه « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » وملكة سبأ تقول : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وموسى يقول لقومه «يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» وفرعون حين يدركه الغرق يقول « آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وقد وصف الله قرية لوط بقوله « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وقص علينا فيما حكاه عن الجن أنهم يقولون : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رَشداً » .

بهذا كله يتبين أن « الإسلام » على لسان هؤلاء جميعاً ، وفى هذه الاستعمالات كلها ، هو الانقياد لله والخضوع له فى العقيدة والعبادة والعمل خضوعاً لا يعرف الشرك ولا الواسطة ، ولهذا يعتبر الله جميع الأنبياء وجميع الذين أوتوا الكتاب مسلمين بهذا المعنى فيقول عن الأنبياء « يحكم بها النبيون الذين أسلموا» ويقول عن أهل الكتاب « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » ويقول عن الذين كفروا بعيسى وزعموا أن ما جاء به من البينات سحر « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام » ...

ولهذا أيضاً يقول القرآن الكريم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين » .

ويأمر المسلمين أن يقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

ويأمر بتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب على هذا النحو فيقول « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

هذا هو دين الله الذى جاءت به كل الرسل ، ونزلت به كل الكتب ، وقد كان دين محمد صلى الله وسلم هو خاتمة هذه الرسالات كلها ، وهو الذى أثبتها ، ولولاه ما عرف أمر رسول عن طريق تطمئن إليه القلوب ، وهو الذى نقاها مما أضيف إليها ، ولولاه ماعرف صحيح من زائف ، وهو الذى أتى بالشرعة الصالحة الماسبة لما وصل إليه الإنسان من رقى فى العقل والتفكير وللمعرفة ، ولولاه لظلت البشرية تتخبط فى ظلمات الأهواء والشهوات والعصبيات ، ولهذا كله تمحض معنى الخضوع لله والانقياد لأمره على ما رسم لعباده فى دين محمد صلى الله عليه وسلم فصار لفظ « الإسلام » علماً عليه ، وأنبأنا الله أنه هو الذى ارتضاه بقوله فى أواخر ما نزل على الرسول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فلم يعد لأحد من البشر بعد ذلك أن يرفضه زاعماً أنه مؤمن بسواه ، فإنه هو الدين وليس له « سوى » ، ومن آمن به فقد آمن برسالات الله كلها ، ومن رفضه فقد رفض رسالات الله كلها ، تلك هى الحقيقة ولن يستريح أهل الأرض حتى يؤمنوا بها ، ويبنوا حياتهم وعلاقاتهم على أساسها « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

ضاق هذا العدد عن طائفة من المقالات القيمة فاضطررنا إلى إرجائها للعدد المقبل